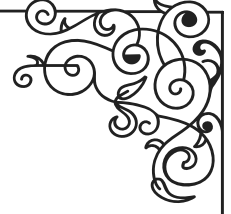
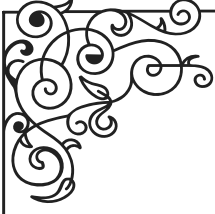


«مفهوم الإغتراب في رواية: «عائد إلى حيفا» {غسان كنفاني}»

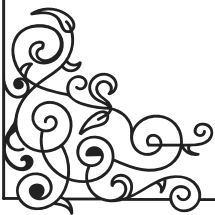
د. غانم أحمد حسين || ٢٥



# مفهوم الإغتراب في رواية: «عائد إلى حيفا» {غسان كنفاني}

د. غانم أحمد حسين

كلية الإمام الأعظم الجامعة





## المقدمة

بأهم المصادر. تضمن المطلب الأول الاغتراب المكاني التي تولد لدى الأديب جراء الاضطهاد القسري من قبل العدو الصهيوني والمطلب الثاني تضمن الاغتراب الزماني . مثل غربة الزمان وتداخله بين الماضي والحاضر. والمطلب الثالث تناول الاغتراب النفسي والذي يعد نتيجة النوعين السابقين وهو أقسى انواع الاغتراب وأكثرها تأثيراً على الانسان .

### • توطئة:

١- مفهوم الاغتراب في اللغة والاصطلاح : مفهوم الاغتراب: لغةً : ورد لفظ الاغتراب في المعجمات اللغوية بمعنى النزوح عن الوطن ، والذهاب والتنحي عن الناس وتوقان النفس ، ويقولون اغترب فلان إذا تزوج الى غير أقربائه<sup>(١)</sup>. ورد لفظ الاغتراب في (معجم المحيط) بمعنى غرب ، غاب ، كغرب ، وبعد واغترب تزوج من غير الاقارب<sup>(٢)</sup> .

اصطلاحاً: اختلف الدارسون في تحديد مفهوم دقيق لمعنى الاغتراب اصطلاحاً نظراً لاختلاف استعماله في البحوث الاجتماعية والدينية والدراسات الفلسفية والنشاطات الثقافية والأدبية وغيرها من مجالات الحياة المختلفة . أما مظاهر الاغتراب عموماً فواحدة منها العزلة والشكوى والبحث عن ..... خاصة . لذلك فهو إنسانية وجدت بوجود الانسان ، ولعله من أكثر المفاهيم التصاقاً بالإنسان، (فهو من طبيعته بل يمكن القول انه دافع من دوافعه

إنّ الاغتراب ظاهرة اجتماعية قديمة ، يعرفها الانسان منذ أن وطأت قدماه الارض وما زالت تصاحبه بمآسيها الى يومنا هذا ، لأنها ضمن طبائعه ، بل هي دافع ضروري من دوافعه ، وهي ظاهرة غريبة تتشكل وتتميز من انسان الى اخر . وبأشكال وصفات سلوكية عديدة .

ويتجسد مفهوم الاغتراب بمظاهر العزلة الناتجة عن إحساس الفرد بأن الآخرين لا يواكبونه فكراً ، وعمما يسود المجتمع من ثقافات مشوهة وتضليل سياسي وتضارب في الآراء والافكار ، والموضوعية الناتجة عن وعي أنواع الفرد بوجود الآخرين كشيء مستقل عن نفسه ، أو عن تمييز في إختصاصه أو تفرد به مجال معين لذلك نجد أن الأديب إتجه الى هذه الظاهرة منذ اقدم العصور .

ولها أهمية كبيرة في إنتاجه الأدبي المنظوم والمنثور لأنها تمثل حياة المجتمع الذي يعيش فيه ويتكلم بلسان حاله ويقدم للناس معاناته واضطهاده .

ومن هنا جاء بحثي بعنوان (مفهوم الاغتراب في رواية عائد الى حيفا لغسان كنفاني) وقسمته على ثلاثة مطالب تسبقهما مقدمه وتمهيد عن اصل الاغتراب في اللغة والاصطلاح والحس المغترب لدى (غسان كنفاني) ويختتم البحث بخاتمة تضمنت اهم النتائج و قائمة بالهوامش و قائمة

الاساسية ، يختلف من إنسان لآخر ومن مجتمع الى آخر ذلك لأنه يتلون بطبيعة صاحبه وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمه ومؤسسات ، وبطبيعة العصر وما يحتويه من قيم واعراف ومعارف<sup>(٣)</sup> لقد وجدت فكرة الاغتراب في أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لدى منظري فكرة العقد الاجتماعي اهتماماً بالغاً ، ولعل (جان جاك روسو) هو أول من استعمل فكرة بمعناها السياسي عندما نحدث عن الاغتراب حقوق الفرد والطبيعة لصالح المجتمع<sup>(٤)</sup> . وقد انعكست هذه الظاهرة على الادب فغدا الاغتراب موضوعاً بارزاً فيه ، شأنه شأن مختلف أوجه النشاط الانسان إذ أصبح من المألوف في الوقت الراهن بصورة متزايدة أن نسمع عن تفسير الحياة عصرنا الحالي من خلال مفهوم الاغتراب<sup>(٥)</sup> . فيعمل الأديب علي نقل رؤيته واثرت التحولات المحيطة به في بنيته النفسية والفكرية الامر الذي جعل بعض الباحثين يميلون الى اعتبار بأن كل رائد في الفن والأدب يحتوي بذور اغتراب في بنيانه الداخلي وأيضاً في كل عمل أدبي أو فني لابد أن نعثر على جذور الاغتراب منذ أقدم العصور حتى الآن<sup>(٦)</sup> .

## ٢- غسان كنفاني مغترباً :

ولد غسان كنفاني في مدينة (عكا) الفلسطينية في التاسع من نيسان عام ١٩٣٦ ، وشهد سقوطها وهو في سن الثانية عشرة ، وخرجت أسرته كما خرجت الكثير من الأسر والعوائل الفلسطينية من أرض الوطن الى المنفى و في التاسع من نيسان عام ١٩٤٨ م ، وقعت مذبحه (دير ياسين) و انتقل هو وعائلته في المنفى من طبقه اجتماعيه الى طبقه اجتماعيه اخرى ، فقد كان والده محامياً في (عكا) وتوقف عن عمله بعد النزوح . فأصبح (غسان) وإخوته يعملون بمختلف الاشغال ليعيلوا الأسرة المكونة من تسعة أفراد ، ولكي يكملوا تعليمهم ، ولذلك نشأ (غسان) على وعي بين القضية الوطنية والحياة القاسية التي يعيشها الشعب من فقر وعوز لذلك تفتحت قريحته وواعيه عن الاغتراب المادي . مكان صدر نتيجة رحيله عن وطنه وتنقله بين الأقطار العربية . واغتراب نفسي ومعنوي نتيجة الاغتراب المكاني الذي عاناه بسبب النزوح والتهجير القسري من قبل العدو الصهيوني على الأرض فلسطين العربية المحتلة . عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني ، وبدأ حياته العملية معلماً للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق ، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرساً للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية . وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة ، كما بدأ إنتاجه الأدبي في المدة نفسها .

انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠ ، حيث عمل محرراً أديباً لجريدة (الحرية) الأسبوعية ، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئيساً لتحرير جريدة (المحرر) كما عمل في (الأنوار) (والحوادث) حتى عام ١٩٦٩ حين أسس صحيفة (الهدف) الأسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها

حتى إستشهاده في ٨ تموز عام ١٩٥٢ على يد جهاز المخابرات الاسرائيلي (الموساد) عندما كان عمره ٣٦ عاماً بتفجر سيارته في منطقة (الحازمية) قرب يروت . كتب (غسان كنفاني) بشكل أساسي بمواضيع التحرير الفلسطيني ، وهو عضو المكتب السياسي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فأدبة كان متفاعلاً دائماً مع حياته وحياة الناس في كل ما كتب كان بصوره واقعاً عاشه وتأثره به <sup>(٧)</sup> .

المطلب الاول: الاغتراب المكاني:  
يؤدي المكان أهمية كبيرة في حياة الأنسان ، اذ يعد اهم اركان الحياة الذي يمارس فيه تكوينه ، فالمكان الذي هو عبارة عن رقعه من الارض تتوافر فيها مقومات الحياة من ماء وكلاً لكي يتمكن الانسان من الأستقرار فيها والمحافظة على حدودها لنفسه ، وقد عرف الأنسان العربي بقوة ارتباطه بالمكان الذي ولد فيه وعاش فيه . ولا يدفعه على ترك هذا الموضوع الإقوه قاهرة مثل نضوب الماء والكلاً أو الحروب والقتال الذي يضطر الى النزوح مما يؤدي الى الاغتراب عن مكانه قسراً .

فالمكان يعد مسرحاً لحركة الفرد في السلم والحرب، وقد قسم النقاد المكان الى نوعين (يقسم المكان الى ذاتي وموضعي في آن واحد ، فكرة ومادة فالمكان الموضعي شكل هندسي فيزيائي له أبعاد وحجوم وتمثله الجغرافية ، والمكان الذاتي فكرة ذهنيه مجردة تصدر عن رؤية فردية ، فيكون مكاناً متخيلاً تتنفي أبعاده الهندسية والجغرافية لتصبح

أبعاداً غير متناهية فتكون ميداناً حضارياً للخيال... <sup>(٨)</sup> ، كان المكان عنواً مهماً في النقد الروائي ، ولم يكن يحتل مكان مهمة كباقي عناصر العمل الروائي إذ لم نجد أيّاً من النقاد خصه بشيء منفرد بالدراسة والتحليل الى أن جاء (غاستون باشلار) ووقف عند جانب معين منه ، وهو (جماليات المكان) أو (تسوية المكان) وقام (بدراسة القيم الرمزية المرتبطة بالمناظر التي تتاح الرؤية السارد أو الشخصيات سواء في أماكن اقامتها كالبيت و الغرفة المغلقة أم في الاماكن المنفتحة الخفية أو الظاهرة المركزية أو الهامشية) <sup>(٩)</sup> . يمتلك المكان مكانه مهمة في بناء النص الروائي والسردى على وجه العموم وقد وصف ذلك بقوله (ميشيل بوتور): (أن قراءه الرواية رحله في عالم مختلف من العالم الذي يعيش فيه القارئ ، فمن اللحظة الاولى التي يفتح القارئ الكتاب ينتقل الى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي ، ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني المباشر الذي يتواجد فيه القارئ) <sup>(١٠)</sup> ، فالإنسان كما أسلفنا يتعلق بالمكان و يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ويحث اليه ويحمل معه هم العودة الى جذوره اذا حدث واضطر الى الخروج منه قسراً بسبب الحروب أو النزاعات الداخلية التي تحدث فتتحول دلالة المكان من الالف الى العداوة ومن الإفتتاح الى الإنغلاق . فالمكان لا يحمل صفه معينه وثابته فيه وانما تتحول دلالاته باعتبار ما يحدث فيه من حوادث و امور خارجه

عن المؤلف، فالوطن هو بعادته مكان ألفه ولكن سرعان ما يتحول هذا المكان الاليف الحنين الذي تعمده فيه الشخصية الى مكان اغتراب وعداوة وضيق بمجرد ما تحدث فيه حوادث غير عاديه كالقتال والحروب والكوارث الطبيعية، فهو يخرج من مكانه ويحمل معه هم العودة الى المدينة بعد استقرار أحوالها. وفي رواية (عائد الى حيفا) نجد فيها ان الانسان يغترب عن مدينته التي عاش فيها وهو يحمل معه كل انواع الألم و اليأس والقنوط ولكن بالمقابل نجد أن الشخصية مع كل هذا الألم ترجع وتحمل العزم والطموح الى العودة في يوم ما الى هذه المدينة التي اصبحت مثل الحلم. ومن الامثلة، التطبيقية التي تعود الى الالم الاغتراب المكاني الذي صورة (غسان كنفاني) في روايته بقوله: (طول الطريق كان يتكلم و يتكلم و يتكلم تحدث الى زوجته عن كل شيء عن الحرب و عن الهزيمة وعن بوابة مندلبو التي هدمتها الجرافات وعن العدو الذي وصل الى النهر والقناه ومشارق دمشق خلال ساعات، وعن وقف اطلاق النار والراديو ونهب الجنود للاشياء والاثاث، ومنع التجوال، وابن العم الذي في الكويت يأكله القلق، والجار الذي لم اغراضه وهرب، والجنود العرب الثلاثة الذين قتلوا واحدهم يموت على تله تقع قرب مستشفى اوغستا فكتوريا، والرجال الذين خلعو بزاتهم وقاتلوا في شوارع القدس، والفلاح الذي اعدموه لحظة رواه قرب اكبر فنادق رام الله،

وتحدث عن زوجته عن امور كثيرة اخرى<sup>(١١)</sup>، قدم (غسان كنفاني) في هذا المقطع من الرواية لوحة فنية صور فيها واقع شعب بأكملة ومدينة فهو يبين للقارئ مدى الألم والضيم والغربة التي حصلت لهذا الشعب المكلموم. دمار عام وتفجير واغتراب وتعدي على الحقوق دون وجه الحق. فالمكان هنا تحولت دلالاته من مكان الألفة والمحبة والحنين الى مكان الغربة والعداوة والألم. فالروائي في هذا المقطع قدم للقارئ حجم المعاناة والغربة المكانية الذي تعرض له هذا الشعب وهو في قلب مدينة. ومن النماذج التي وضح فيها (غسان كنفاني) الاغتراب المكاني في قوله (و حين كان يقود سيارته وسط شوارع حيفا كانت رائحة الحرب ما تزال هناك، بصورة ما غامضة ومثيرة ومستفزة، وبدت له الوجوه قاسية ووحشية، وبعد قليل اكتشف انه يسوق سيارته في حيفا دون أن يشعر بأي شيء في الشوارع قد تغير كان يعرفها حجراً حجراً ومفرقاً وراء مفرق، فلطالما شقق تلك الطرق بسيارته الفورد الخضراء موديل ١٩٤٦. إنه يعرضها جيداً والان يشعر بأنه لم يتغيب عنها عشرين سنة، وهو يقود سيارته كما كان يفعل كما لو أنه لم يكن غائباً طوال تلك السنوات المريرة وأخذت الاحياء تنهال في راسه كما لو انها تنتفض عنها طبقة كثيفة من الغبار وادي النسناس شارع الملك فيصل ساحة الحناطير، الحليصة، الهادار)<sup>(١٢)</sup>، أن إحساس الأديب بالمكان يختلف عن الآخرين، فالمكان

يمثل لدية نقطه إثارة تمس وجدانه وكيانه ، وتعود به الى أصوله الممتدة عبر التاريخ . لذلك عبر (غسان كنفاني) في هذه الصورة شخصية (سعيد) و زوجته (صفية) الذين اضطرا الى الخروج من مدينتهما (حيفا) قسراً . وبين (كنفاني) مدى الألم والغربة التي عاشها المجتمع الفلسطيني المنكوب في تلك الحقبة من الزمن و هذه العائلة على وجه الخصوص . فهذه العائلة تعيش الغربة المكانية الفعلية والمجازية الفعلية هي النزوح القسري بسبب العدو الغاشم الظالم والغربة المجازية هي الاغتراب داخل البلد والمدينة فالإنسان يعيش داخل مكانه الأصلي ولكن مقيد بقيود فرضت عليه من قوى خارجية ظالمة لا يستطيع تغييرها أو ردها . ومن الصور الأخرى على ظاهرة الاغتراب المكاني في رواية (عائد الى حيفا) قول الروائي : (وتبعها سعيد ، وبجانبه صفية ، بخطوات مترددة بطيئة وأخذا يميزان الأشياء بشيء من الدهشة ، لقد بدأ له المدخل أصغر قليلاً ، مما تصوره و أكثر رطوبة واستطاع أن يرى أشياء كثيرة أعتبرها ذات يوم ، وما زالت أشياءه الحميمة الخاصة تصورها دائماً ملكية غامضة مقدسة لم يستطع أيا كان أن يتعرف عليها أو أن يلمسها أو أن يراها حقاً ، ثمة صورة للقدس يتذكرها جيداً ما تزال معلقة حيث كانت ، حين كان يعيش هنا ، و على الجدار المقابل في سجادة شامية صغيرة كانت دائماً هناك أيضاً) (١٣)

يحدث ذلك كله .

وسألته زوجته متوترة بعض الشيء .

ماذا حدث لك يا سعيد ؟

لا شيء . لا شيء أبداً . كنت أتساءل فقط . أفتش عن فلسطين الحقيقية . فلسطين التي هي أكثر من الذاكرة ، أكثر من ريشة الطاووس ، أكثر من ولد ، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم . وكنت أقول لنفسي ما هي فلسطين بالنسبة لخالد ؟ إنه لا

يحدث ذلك كله .

يعرف المزهريه ولا الصورة ولا السلم ولا الحليصة ولا خلدون ، ومع ذلك فهي جديرة بأن يحمل المرء اصطلاح ويموت في سبيلها ، و بالنسبة لنا انا وانت مجرد تفتيش عن شيء تحته غبار الذاكرة<sup>(١٤)</sup> لقد كانت غربه المكان اساساً انبتت عليه رواية (عائد الى حيفا) فقد انتقال (سعيد) وزوجته (صفية) الى العيش خارج مدينة قسراً . ليسقطوا ضحية الجشع والاستغلال والظلم . فقد صور (كنفاني) في هذا المقطع حالة الوطن الضائع الوطن الذي اصبح مثل الحلم يدور في عقول واذهان اهله وساكنيه . فهو يتساءل مع زوجته عن موطنه الاصلي الحقيقي يتساءل عن فلسطين الحقيقية قبل الاحتلالها من قبل العدوان الصهيوني والفتك والسلب والنهب الذي تعرضت له وتهجير اهله ونزوحهم الى بلدان في شتى دول العالم . واسكان اناس وبشر جمعوا جميعاً من دول وتوطينهم في فلسطين . ولم ينظر الى ذكريات مؤلمة لواقع بائس يدور في عقول ابنائها وهم يحلمون للعودة في يوم ما . لذلك ترى ان الروائي قدم للقارئ صورة واضحة على الغربة المكانية التي تعرضت لها عائلة سعيد وزوجته صفية بعد عودتهم الى بلادهم .

#### • المطلب الثاني: الاغتراب الزماني:

شغل مفهوم الزمان النقاد قديماً وحديثاً ، وسلكوا فيه طرقاً شتى ، إنه يشكل خطأ متواصلاً ، تنازعت عليه قوى ثلاث في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، (ويؤثر عن الشكلايين الروس انهم كانوا من

الاولئ الذين أدرجوا مبحث الزمن في نظرية الادب ، ومارسوا بعضاً من تحدياته على الاعمال السردية المختلفة)<sup>(١٥)</sup> .

لقد ظهر الزمان السردى في الدراسات الحديثة من تفريق الشكلايين الروس<sup>(١٦)</sup> . بين زمن المتن الحكائي . و هو الزمن الذي يفترض ان الاحداث قد جرى فيه فعلاً ، وزمن المبني لحكائي وهو الوسائل التقنية للزمن الذي يخلق الابهام الزمني فضلاً عن الوقت الضروري لقراءة عمل سردي معين ، وهذا الزمن يتحكم فيه المتلقي والقارئ . بدل على هذا أن زمن المتن الحكائي هو زمن تاريخي في حين أن الزمن المبني الحكائي هو زمن جمالي<sup>(١٧)</sup> ، يشوه الزمن الاول و يخلخل بنيته ثم يعيد بناءه من جديد على أسس جمالية تسعى الى خلخلة توقعات ،<sup>(١٨)</sup> القارئ و تكون لديه احساس بالجديد والانتقال من المؤلف الى غير المؤلف ، لأن الزمن الاول يمثل ما هو كوني ومألوف في حين يمثل الزمن الثاني ما هو تقني يتضح ويتمظهر في التتابع المنظم للوصف والتداخل .<sup>(١٩)</sup> يتضح لنا من هذه المقدمة النظرية عن مفهوم الزمن في العمل الادبي ان احساس الانسان بالزمن يرتبط بنحوه البدني و تطوره العقلي ، فيمر الانسان بمراحل زمنية تبدأ بالطفولة والفتوة والشباب والنضج والكهولة والشيخوخة . وفي كل مرحلة زمنية يقترن بها حدث معين يتذكره الانسان و يستعيده ويحن اليه ، ويتمنى أن تعود أيامه وهو يعلم أنها لا تعود ويبيث ما في



## «مفهوم الإغتراب في رواية: «عائد إلى حيفا» {غسان كنفاني}»

د. غانم أحمد حسين || ٣٣

نفسه من حسرة وألم في فنه وادبه . فيحس بذلك غربة زمنية يشتكي بها حدث هذا الزمان الذي تغير فيه كل شيء الانسان والمكان وغيرها من متطلبات الحياة فيقف موقف العدا والنفور من هذا الزمان . واحياناً يكون موقفه سلبياً فيحقق الانسان موقف الاستسلام والانقياد للأمر الواقع نظراً لقوة الظرف الذي يمر به وتمرده وجبروته . ورواية (عائد الى حيفا) خير مثال على ذلك الاغتراب الزمني . إذ صور فيها (غسان كنفاني) اشع انواع الاغتراب الزمني في ضل سطوة العدوان الصهيوني على اراضينا في فلسطين . قدم (كنفاني) في هذا العمل الأدبي صورة للعالم عن الألم والحرمان والفقْد الذي تعرضت له هذا الشعب المكلم ، إذ أضطر الى الاغتراب قهراً عن أرضه فعاش في زمان غير زمانه بعد ما كان يدخل بأرق ثواب والعز والنعيم . ومن اللوحات التي رسم فيها (غسان كنفاني) صورة عن واقعه الزمني المغترب قوله : (- ما هذه الفلسفة التي لم تكف عنها طوال النهار ؟ الأبواب والرؤيا وأمور أخرى ، ماذا حدث لك ؟ - ماذا حدث لي ؟ قالها لنفسه وهو يرتجف ، ولكنه تحكم بأعصابه وعاده يقول لها بهدوء - لقد فتحو الحدود فوراً انهو الاحتلال فجأة وفوراً ، لم يحدث ذلك في اي حرب في التاريخ ، أتعرفين الشيء الفاجع الذي حدث فيه نيسان ١٩٤٨ ، والان بعد لماذا؟ لسواد عينيك و عيني ؟ لا . ذلك جزء من الحرب انهم يقولون لنا تفضلوا انظر كيف اننا أحسن منكم واكثر رقياً عليكم أن تقبلوا أن تكونوا خدماً لنا معجبين بنا ولكن رأيت بنفسك ، كان بوسعنا ان نجعلها احسن بكثير .

- اذا لماذا اثبت . ونظر اليها بحنق ، فصمتت .

كانت تعرف ، فلماذا تسأل ؟ وهي متى قالت له أن يذهب ، فطوال عشرين سنة تجنبت الحديث عن ذلك ، عشرين سنة ، ثم ينبثق الماضي كما يندفع البركان<sup>(٢٠)</sup> بدأ الراوي في هذا المقطع بإسترجاع ذكريات مؤلمة حدثت سابقاً فعلى الرغم من هدوء الأوضاع في المنطقة والسماح لهم بدخول بلدهم إلا أنهم لم يحسوا بذلك فعلاً . بسبب غربة الزمان الذي يعيشون فيه . غربة زمانية كبيرة جداً . كل شيء قد تغير لم يكن الزمان نفسه الذي ترك فيه بلاده منذ عشرين سنة لذلك جسد (غسان كنفاني) الغربة الزمانية على لسان شخصياته الحقيقية في الرواية (سعيد) وزوجته (صفية) فنجد أن (سعيد) يتحدث بسخريه مع زوجته (صفية) عن مأساوية الواقع المؤلم الذي يعيشون فيه . و من النماذج الأخرى في رواية (عائد الى حيفا) والتي تمثل الغربة الزمانية ما نجد في هذا المقطع : (وعندما جاء الماضي بكل ضجيجهِ ولأول مرة منذ عشرين سنة تذكر ما حدث بالتفاصيل وكأنه يعيش مرة أخرى . صباح الاربعاء ، ٢١ نيسان ، عام ١٩٤٨ .

كانت حيفا مدينة لا تتوقع شيئاً رغم انها كانت محكومة بتوتر غامض . وفجأة القصف من الشرق

من تلال الكرمل العالية . ومضت قذائف المورتر تطير عبر وسط المدينة لتصب في الأحياء العربية . وانقلبت شوارع حيفا الى فوضى ، واكتسح الرعب المدينة التي أغلقت حوانيتها ونوافذ بيوتها كان سعيد في قلب المدينة ، حيث بدأت اصوات الرصاص والمتفجرات تملأ سماء حيفا ، كان قد ضل حتى الظهر غير متوقع ان يكون ذلك هو الهجوم الشامل<sup>(٢١)</sup> بدا (سعيد) في هذا المقطع يسترجع ويستعيد ذكريات منذ عشرين سنة فعندما عاد الى حيفا وصل الى مشارف المدينة بدأ يعيد شريط ذكرياته وتسلسلها في ذاكرته . فهو يعرف بكل تفاصيل ذلك اليوم (١٩٤٨ / ٤ / ٢١) هذا اليوم الذي انقلبت فيه كل الموازين الاخلاقية في العالم . فبدا العدوان الغاشم يصب غضبه على هذه العوائل العزل دون وازع من دين او عرض او قانون فهذا الشريط الذي صورة وحفظه (سعيد) في ذاكرته بشكل غريبة زمانية مؤلمة ضلت عالقة في باله مدى الحياة ، وذلك في ظل تأثيره السلبي والنفسي على شخص (سعيد) على الرغم من فك الحصار على المدينة و صار بإمكانه الرجوع الى بيته ومأواه .

ومن الشواهد الأخرى التي يوضح فيها (كنفاني) الاغتراب الزماني في هذه الرواية ما نجد في هذا المقطع : (ووقف الرجل وقد تغير وجهه ، ثم قال - أنا من يافا من سكان المنشية . و في حرب ١٩٤٨ هدمت قنابل المورتر بيتي لست أريد أن أروي لك الآن كيف سقطت يافا وكيف انسحبت ، أولئك

جاءوا لينجدونا ، لحظة المأزق . ذلك الشيء راح الان .. المهم انني حين عدت مع المقاتلين الى المدينة المهجورة اعتقلونا وأمضيت فترة طويلة في المعتقل . ثم حين أطلقوني رفضت أن أغادر يافا ، وقد عثرت على هذا البيت و أستأجرته من الحكومة<sup>(٢٢)</sup> .

عرج (غسان كنفاني) على شخصية (فارس اللبدة)<sup>(٢٣)</sup> هذه الشخصية التي ماتت من الاغتراب على مختلف اشكاله وانواعه وهي لا تقل المأعن (سعيد) وعائلته فقد تم تهجيرهم قسراً من مدينة وعندما عاد وجد نفسه مغترباً في مدينة وهذا هو أقصى أنواع الاغتراب عندما يجد الانسان نفسه غريباً داخل داره ومدينته ولكن لا يستطيع أن يغير من الواقع شيئاً . لذلك عندما رجع (فارس) الى داره وجد أن هناك عائلته تسكنه وتحل فيه . ولكن هذه العائلة فلسطينية منكوبة كانت الأخرى التشرذم والضياع والألم الذي عاناه كل من (فارس) و (سعيد) . فبدأ ذلك الرجل الذي يسكن في داره يشرح له الأسباب التي جعلته يسكن في بيته فبدأ يسترجع مع (فارس) ذلك اليوم الذي أستيقظت المدينة على أصوات المدافع والقنابل ، إنه حرب حزيران (١٩٤٨) ذلك اليوم الذي بقي عالقاً في ضمير كل أبناء ذلك الحي لما لاقوه من فجاعة ودمار حل بهم وخلده التاريخ عبر العصور والازمان . لذا جسد (كنفاني) في هذا المقطع من الرواية صورة واضحة عن الغربة الزمانية التي حلت بالمدينة وأهلها وخصوصاً عندما عاد

بعد عشرين سنة .

• المطلب الثالث: الاغتراب النفسي:

ويسميه علماء النفس الاغتراب الذاتي ويتمثل في زوال الارتباط بين الذات وما عليه الانسان أو ما كان عليه ، بما في ذلك ارتباط حياته الحاضرة بماضيه ، وبؤرة هذا الاغتراب هو البعد عن مشاعر المرء ومعتقداته وطاقاته .<sup>(٢٤)</sup> وذلك أن الانسان حين يرصد سوء الواقع الذي يعيش فيه ، ويفقد فيه كل آماله وطموحاته التي يتطلع اليها . ويعجز عن تحقيقها ، يتمرد على ذلك الواقع ويرفضه ، فيعمد الى الهجرة والهروب من ذلك الواقع المزري الذي وقف ضد طموحاته ، فيصنع لنفسه عاملاً نرجسياً متفائلاً منفصلاً عن الواقع الفعلي تبعاً لذلك الاغتراب .<sup>(٢٥)</sup>

وتتجلى مظاهر الاغتراب النفس في شعور طاغ بالألم والحزن واليأس والعجز والعزلة الاجتماعية ويتميز المغترّب بالقلق والاكتئاب ، مع احساس باللاواقعية والفراغ والسأم والسخط ، وغالباً ما يكون في سلوكه عدائياً مع الاخرين وتتفاعل هذه الابعاد فيما بينها ، وقد يزداد شعور الفرد ببعد او اكثر من هذه الابعاد .<sup>(٢٦)</sup> فالاغتراب النفسي نتيجة ، لما يحدث للفرد من اضطرابات نفسيه وعقلية وما يحس فيه من غربة في العالم وفتور وجفاء في علاقته بالآخرين . فالانفصال عن الذات والواقع و شعور الانسان باختلافه عن الاخرين وافتقاده الاحساس بالعلاقة بينهما ، ومن ثم انعدام القدرة في التمرد

على الواقع والاحساس السلبي تجاه المجتمع الذي يعيش فيه إكتشاف انعدام قيمة الحياة كل هذه الأمور تؤدي الى العزلة والاغتراب عن الذات عن الخارج .<sup>(٢٧)</sup> وهذه الدرجة من الاغتراب لا تحدث فجأة . و ماهي الاحالة او نتيجة لحالات اغترابية سابقة لها قد اصابت الانسان وأفقده الثقة بالمكان والزمان الذي يعيش فيه . فمصطلح الاغتراب هنا يحمل دلالة على احوال نفسية وعقلية تتفاوت درجة قوتها ، فقد يعني مجرد السرحان والشروذ الذهني الناتج عن إهتمام الأنسان بأمور معينه ، تبعده عن ذاته وبيئته بها عن نفسه كما قد يعني فقدان الحس أو غياب الوعي كما يحدث في الحالات النفسية المرضية المتعددة .<sup>(٢٨)</sup>

ومن صور الاغتراب النفسي الذي وجدناها في رواية (عائد الى حيفا) والتي توضح فيها (غسان كنفاني) هذا المفهوم ما حددها في هذا المقطع : (حسناً ، من اين نبدأ ؟ ولكنها ظلت صامته ، وسمع صوتها الخافت يبكي بما يشبه الصمت ، وقدر لنفسه العذاب الذي تعانیه ، وعرف إنه لا يستطيع معرفة العذاب على وجه الدقة ، ولكنه يعرف أنه عذاب كبير ، ظل هناك عشرين سنة وأنه الآن ينتصب عملاقاً لا يصدق في أحشائها ، ورأسها ، وقلبها ، وذاكرتها ، وتصوراتها ، ويهيمن على كل مستقبلها واستغرب كيف أنه لم يفكر أبداً بما يمكن أن يعنيه ذلك العذاب ، وبمدى ما هو غارق في تجاعيد وجهها و عينيها وعقلها ، وكم كان معها

في كل لقمة أكلتها وفي كل كوخ عاشت فيه ، وفي كل نظرة رمتها على أولادها و على نفسها والان ينبثق ذلك كله بين الحطام والنسيان والأسى ، ويأتي على ركام الهزيمة المريرة التي ذاقها مرتين على الأقل في حياته<sup>(٢٩)</sup> . في هذه اللوحة الفنية التي قدمها (كنفاني) والتي رسم فيها صورة واضحة عن الحالات النفسية المتأزمة المريرة التي مرت بها هذه العائلة المنكوبة عائلة (سعيد وصفية) التي فقدت أبنها في اثناء التهجير والنزوح القسري على مدينة (حيفا) . هذه العائلة التي ظلت طوال عشر سنين تعيش بين الحلم والأمل من جهة واليأس والقنوط من جهة اخرى . أختلطت عليها المشاعر بين الإيجابي والسلبي ، فهي تحلم بالعودة الى بيتها ذات يوم وتسترد أبنائها الذين لم تستطع أن تنقذهم معها بسبب تداعي الأحداث المفاجئ . لذلك نجد أن الروائي في هذا المقطع قدم للقارئ صورة واضحة عن الاغتراب النفسي البشع والذي كان نتيجة للاغتراب المكان والزمان والروحي الذي تعرضت له هذه العائلة سابقاً . ومن الصور الأخرى على هذه الحالة النفسية ما نجده في هذا المقطع إذ يقول الروائي : (و حين نظر الى صفية راها ترتجف ، وشهد وجهها يميل بوضوح للإصفرار ، فخرج من الغرفة ، إذ أحس هو الآخر بدموع حارقة تسد حلقة ، ومنذ تلك اللحظة لم يكف إسم خلدون عن الدق في رأسه ، تماماً مثلما كان قبل عشرين سنة حين سمعه يدق المرة تلو الاخرى فوق الزحام

المتدفق أمام مياه الميناء الباكية . ولاشك انه كان كذلك بالنسبة لصفية ، وقد تحدثنا طوال الطريق عن كل شيء إلا خلدون ، وقرب بيت غاليم فقط إلتزم الصمت ، وها هما الآن ينظران صامتين الى الطريق التي يعرفانها جيداً و الملتصقة في راسهما كقطع من لحمهما وعظامهما)<sup>(٣٠)</sup> .

نجد في هذا المقطع من الرواية صورة أخرى من صور الاغتراب النفسي التي كانت نتيجة للاغتراب المكاني وفقدان الأشخاص والعائلة والمجتمع . فعندما فقد (سعيد وصفية) ولدهما (خلدون) و لم يستطيعا أن ينقذاه أثر الهجوم الصارم من قبل العدو الصهيوني على مدينة (حيفا) صار كل شيء لديهما غريبه في المكان غريب والزمان غريب والأشخاص غريباً ، كل هذه مقدمه للاغتراب النفسي الذي أصبح ملازماً لهم . فقد فقدت هذه العائلة طعم الحياة والتمتع بملذاتها ، وهذا كله صورة واضحة للواقع المزري الذي مرت به العوائل الفلسطينية في ذلك الزمان وما آلت اليه ظروفهم من ألم وغربة وضياع . ومن حالات الاغتراب النفسي في رواية (عائد الى حيفا) ما نجده في هذا المقطع إذ يقول الروائي (و للحظة رغب في أن يقوم ويمضي فلم يعد يهمه أي شيء . ليكون خلدون ميتاً ، أو حياً ، لا فرق ، فحين تصل الأمور الى هنا فليس ثمة ما يمكن أن يقال ، و أنتابه غضب مهيب وممرّ ، وأحس أنه على وشك أن يتفجر من الداخل ، وليس يدري كيف سقط نظر على تلك الريشات

## الخاتمة

لقد حاولت في بحثي هذا دراسة مفهوم الاغتراب في أدب غسان كنفاني ورواية (عائد الى حيفا) نموذجاً. وقد توصلت الى نتائج عديدة أهمها:

١- لقد تضمن مفهوم الاغتراب دلالات عديدة تطورت بتطور الزمان واختلفت باختلاف الثقافات. فالاغتراب متعدد الدلالات والمظاهر وتعود في نشأتها الى المجتمع الذي نشأ فيه .

٢- نشأ (غسان كنفاني) في بيئة مليئة بالأحداث منذ ولادته . فتعود على أن تكون رواياته معبرة عن المجتمع والأحداث التي تقع فيه . اي تعد نوعاً ما عن الخيال واتجه الى الواقع .

٣- كانت ثيمة الاغتراب واضحة في جميع أعماله الادبية . فنجد أن الروائي أكد على الاغتراب المكاني والزمني الذي تأثر المجتمع بهما نتيجة الظلم الواقع عليه من العدوان الصهيوني .

٤- كان الاغتراب النفسي نتيجة حتمية للاغتراب الزمني والمكاني . إذ نجد أن الأزمة النفسية تتولد بعد معاناة شديدة تعرض لها الفرد من طرق ظالمة وقعت عليه .

٥- عالج (غسان كنفاني) في رواياته الكثير من الأمور التي تتعلق بمجتمعه الذي يعيش فيه ، إذ بين للعالم ما يحصل من ظلم وتهجير وإقصاء ونزوح قسري تعرض له هذا الشعب المظلوم .

الخمس من ذيل الطاووس التي كانت مزروعة في الاناء الخشبي وسط الغرفة ، وراها تتحرك بألوانها الفضة الرائعة التي لا تصدق ، من هبوب نسمة من الهواء إذ خلت من النافذة المفتوحة وفجأة سأل بفضاظة وهو يشير الى المزهريّة)<sup>(٣١)</sup>. عندما يصل الانسان الى مرحلة اليأس تنعدم عنده الاشياء . فلا يستطيع ان يميز بينها تختلط مشاعره ويصبح انساناً هامشياً عابثاً . وهذا ما حصل (لسعيد و زوجته صفية) عندما اوى الى منزلهما في مدينة (حيفا) بعد عشرين سنة من الاغتراب ، وصلت بهم الحالة النفسية المغتربة المتأزمة الى مرحله اليأس من شدة الواقع المؤلم الذي انصدم به وجد (سعيد) ان كل شيء في مدينه ومنزله قد تغير فضلاً عن العائلة اليهودية التي استولت على منزله . وولده الذي تغيرت فطرته واصبح يدين بالديانة اليهودية ليس هذا فحسب ، بل أصبح جندياً قاتل أهله في صفوف العدو اليهودي الصهيوني بعد ما تربى في احضان هذه العائلة اليهودية . وتشرب بعاداتها وتقاليدها التي تختلف جذرياً عن تعاليم الإسلام الحنيف . كل هذه الأمور اجتمعت لتخلف حالة من الاغتراب النفسي الذميم لدى (سعيد و صفية) فعلى الرغم من عودتهما الى منزلهما في (حيفا) وبإمكانهم الحصول عليه مرة أخرى ، إلا أنهم فقدوا تلك الروح الحينية التي كانت تجمعهم به .



## الهوامش

٦- كانت جميع أعماله تحمل أملاً متفائلاً في الرجوع الى بلده يوماً ما ، فهو على الرغم من الألم والأسى الذي تحمله أعماله نتيجة ما يحصل في بلاده ، إلا أننا نجد أن هناك أملاً في العودة الى بلاده وتحريرها من العدوان الظالم .

١- ينظر ، لسان العرب ، ابن منظور ، ١٠ ، ٣١ .  
٢- ينظر ، (القاموس المحيط) الفيروز ابادي : مادة غرب .

٣- الطرية والحنين في الشعر الجزائري ، عمر بوقرورة ، منشورات جامعة باثنه ، د. ط ، د.ت : ١٣ .

٤- ينظر ، الاغتراب في التنظيمات الاجتماعية ، شتا السيد علي ، مكتبة الاشعاع الفنية ، الاسكندرية د. ط ، ١٩٩٧ : ٣٢ .

٥- الاغتراب ، شاخت ، ترجمة كامل يوسف حسن ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات ، ١٩٨٠ : ٥٦ .  
٦- ينظر ، احوال الاغتراب الكافكاوي ورواية (المسخ) نموذجاً ، عالم الفكر ، ١٩٨٤ ، مج ١٥ ، ع ٢ ، ٨٥ .

٧- ينظر ، (رواية الرجال في الشمس) ، ينظر ، رواية (عائد الى حيفا) (غسان كنفاني)

٨- المكان في الشعر العراني الحديث ، سعود احمد يونس : ١٢ .

٩- بنية الشكل الروائي ، القضاء - الزمن - الشخصية - حسن الجراوي : ٢٥ .

١٠- بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثة نجيب محفوظ) ، سيزا احمد قاسم : ١٠٣ .

١١- رواية عائد الى حيفا ، غسان كنفاني : ٦ .

١٢- المصدر نفسه : ٩ .



## المصادر

- ١٣- المصدر نفسه : ٢٩ .
- ١٤- المصدر نفسه : ٧٧ .
- ١٥- بنية الشكل الروائي : ١٠٧ .
- ١٦- ينظر ، نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلايين الروس) ، تزفيتان تودوروف ترجمة ، ابراهيم الخطيب : ٨٢ .
- ١٧- ينظر ، قضايا الرواية الحديثة ، جان ريكاردو ، مترجمة كامل عويد : ١٥ .
- ١٨- ينظر ، البنية السردية في روايات عبد الرحمن مجيد الربيعي ، سعد العتابي : ١٣٨ .
- ١٩- ينظر ، خطاب الحكاية ، جيرار جينين ، ٤٥ .
- ٢٠- رواية عائد الى حيفا : ٨ .
- ٢١- المصدر نفسه : ١١ .
- ٢٢- المصدر نفسه : ٥٧ .
- ٢٣- ينظر المصدر نفسه : ٥٠ .
- ٢٤- ينظر ، الاغتراب ، ريتشارد شاخنت : ٢٠٥ .
- ٢٥- ينظر ، الاغتراب - الانسان المعاصر وشقاء الوعي ، فيصل عباس : ٣٠٢ .
- ٢٦- ينظر ، الاغتراب في الشعر الاموي ، فاطمة محمد حميد السويدي : ١٦٠ .
- ٢٧- ينظر ، الاغتراب سيرة ومصطلح - محمود درجي : ٣٥ .
- ٢٨- ينظر ، المصدر نفسه : ٣٦ .
- ٢٩- رواية عائد الى حيفا : ١٠ .
- ٣٠- المصدر نفسه : ٢٥ .
- ٣١- المصدر نفسه : ٣٣ .
- ١- إغتراب الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، فيصل عباس، دار المنهل اللبناني، ٢٠٠٨م.
- ٢- الاغتراب سيرة ومصطلح ، محمود رجب، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ٣- الاغتراب، شاخنت، ترجمة، كامل يوسف حسن، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨٠م.
- ٤- الاغتراب في التنظيمات الاجتماعية ، شتا السيد علي ، مكتبة الاشعاع الفنية الاسكندرية ، د.ط ، ١٩٩٨ .
- ٥- الاغتراب في الشعر الأموي، فاطمة محمد حميد السويدي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- ٦- الغربية والحنين في الشعر الجزائري، عمر برقرو، منشورات جامعة باتنة، د.ط، د.ت.
- ٧- بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، سيزا أحمد قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- ٨- البنية السردية في روايات عبد الرحمن مجيد الربيعي، سعد العتابي، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، كلية التربية.
- ٩- بنية الشكل الروائي، الفضاء-الزمن-الشخصية، حسن بحرأوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٢، ٢٠٠٩م.
- ١٠- حول الاغتراب الكافكاوي ورواية(المسوخ)

- إنموذجا، عالم الفكر، ١٩٨٤، عدد ٢ .
- ١١- خطاب الحكاية، جيرار جنيت، ترجمة، محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧ م.
- ١٢- رواية رجال في الشمس، غسان كنفاني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٦٠ م.
- ١٣- رواية عائد إلى حيفا، غسان كنفاني، مطبعة أفندينا، د.ت.
- ١٤- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥ م.
- ١٥- قضايا الرواية الحديثة، جان ريكاردو، ترجمة، كامل عويد العامري، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٤ م.
- ١٦- لسان العرب، إبن منظور، دار صادر، ط١، ١٩٩٠ م.
- ١٧- المكان في الشعر العراقي الحديث، سعود أحمد يونس.
- ١٨- نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلايين الروس، تزفيتان تودوروف، ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٢ م.

